دراسات اسلامية

الزندقة فى الإسلام

للأستاذ عبد الرحمن بدوى

للزندقة فى الإسلام تاريخ شائق، عنى المستشرقون بدراسته عناية شديدة، فكتبوا فيه الرسائل القصيرة أو المقالات الطويلة المستفيضة التى تظهر باستمرار وأغلب ما فيها جديد طريف. ولكنهم لم يبلغوا من هذا كله شأواً بعيداً، ولم يستطيعوا حتى اليوم أن يلقوا ضوءاً قوياً ساطعاً على أغلب نواحيه

عنوا بدراسة هذا التاريخ لأنه بدون إيضاحه وتعمقه لن نستطيع أن نفهم كيف نشأت بعض النظريات فى علم الكلام بل بعض المذاهب الكلامية التى ازدهرت خصوصاً فى القرنين الثانى والثالث للهجرة، إذ أن الكثير من نظريات مذهب كمذهب المعتزلة لا يمكن أن يفهم بدون معرفة هذه الخصومات الكثيرة العنيفة التى كانت تقوم بين كبار المعتزلة وبين الزنادقة، والتى كان يثيرها هؤلاء الأخيرون فيضطر أصحاب الاعتزال إلى أن يتخذوا موقفاً يزانيها خاصاً. حتى أنه لو أتيح لنا أن نبحث فى تكوين النظريات المختلفة التى يشتمل عليها مذهب المعتزلة بحثاً دقيقاً، يتابع تطوره ويرسم النحنى الذى عليه سار، إذن لوجدنا للزندقة أكبر الأثر وأعظم الخطر فى هذا التكوين

كما لا نستطيع أن نفهم أيضاً تلك الحركة السياسة الحضارية الخطيرة التى ظهرت خصوصاً فى أوائل حكم العباسيين، وأعنى بها حركة الشعوبية. ودون أن نذهب إلى ما ذهب إليه الدكتور طه حسين فى كتاب «حديث الأربعاء» من إرجاع حركة الزندقة كلها أو معظمها إلى حركة الشعوبية، نستطيع أن نؤكد على أقل تقدير أن بين كلتا الحركتين صلة قوية شديدة، حتى كان بعض أنصار العربية ضد الشعوبية يتخذون من الشعوبية وسيلة للدلالة على الزندقة كما سنرى بعد حين

وإلى جانب هذا كله لا يمكن أن ندرك التطور الروحى فى بلاد الإسلام والحياة العقلية عامة على حقيقتهما، إلا إذا نظرنا إلى حركة الزندقة باعتبارها عاملاً من أخطر العوامل التى لعبت دورها فى ذلك التطور وهذه الحياة، فسيرت الأول فى اتجاه معين وحددت له خطوطاً رئيسية مشى فيها؛ وكيفت الثانية تكييفاً معيناً وصبغتها بصبغة خاصة لم تبهت على مر الزمان

فلهذه الأسباب كلها ولغيرها من الأسباب وجه المستشرقون عنايتهم إلى هذه الدراسة؛ ولكن دراستهم هذه لا تزال حتى اليوم ناقصة، فيها الكثير من التشويه والليس. وذلك راجع إلى أن تاريخ الزندقة فى الإسلام موضوع غامض كل الغموض، مضطرب كأشد ما يكون الاضطراب، يشق علينا كثيراً - الآن على أقل تقدير - أن نتبينه فى وضوح وأن نتمثله فى جلاء

فلفظ «زنديق» لفظ غامض مشترك قد أطلق على معان عدة، مختلفة فيما بينها على الرغم مما قد يجمع بينها من تشابه. فكان يطلق على من يؤمن بالثنوية ويثبت أصلين أزليين للعالم: هما النور والظلمة. ثم اتسع المعنى من بعد اتساعاً كبيراً، حتى أطلق على كل صاحب بدعة وكل ملحد. بل انتهى به الأمر أخيراً أن يطلق أيضاً على من يكون مذهبه مخالفاً لمذهب أهل السنة، أو حتى من كان يحيا حياة المجون من الشعراء والكتاب ومن إليهم. وقد كتب الأستاذ هانز هينرش شيدر فصلاً ممتعاً عن أصل هذا اللفظ واستعماله عند الكتاب غير الإسلاميين[1] وجمع الأستاذ ماسينيون معانى اللفظ كما استعمله الكتاب الإسلاميون فى البحث الذى كتبه فى دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة «زنديق» وفى كتابه عن «عذاب الحلاج[2]». ويظهر من هذين البحثين أن اللفظ قد اتسع معناه إلى حد لا يسمح بتحديده تحديداً دقيقاً مما يحملنا على الحذر والانتباه الشديد للمعنى المقصود به فى السياق الذى نجده فيه

ثم إن المصادر التى تحدثنا عن الزندقة والزنادقة قليلة غير مأمونة. وهذه القلة إما لأن كتب الزنادقة قد فقدت كلها تقريباً، ولم يعد بين أيدينا منها إلا شذرات ضئيلة نعثر عليها بعد عناء طويل فى كتب الردود، مثل هذه الشذرات التى عثر عليها الأستاذ كراوس فى كتاب «المجالس المؤيدية» وهى شذرات لابن الراوندى مأخوذة من كتابه «الزمرد» قد رد عليها داعى الدعاة مؤيد الدين الشيرازى فى هذه المجالس الموسومة باسمه؛ أو لأن بعض المصادر التى تحدثنا عن الزندقة والزنادقة لا تزال مخطوطة حتى اليوم

(١) H. H. Schüder, Landiq-Lindiq, in Iranische Beiträge, I, 76-93

(٢) L. Massignon, La Passion d'al-Hallâg, h. 186-189

فليست فى متناول يد الباحثين . وأهم المصادر من هذا النوع كتب الشيعة مثل كتاب « الاحتجاج » للطبرسى

كما أنها غير مأمونة من ناحيتين : الأولى أن الروايات المكتوبة فى بعضها لم يتحر أصحابها الدقة فى إيرادها، فجاءت فى الغالب مهوشة ناقصة . والثانية أن البعض الآخر من هذه المصادر ، وهو أغلبها ، قد كتبه الخصوم وأوردوا فيها آراء الزنادقة بعد أن أدخلوا عليها شيئاً غير قليل من التبديل والتغيير ، بما يوافق أغراضهم فى الخصومة والحجاج ، وبما يتلاءم مع الإلزامات التى يريدون أن يستخلصوها منها . ولهذا يصعب على الباحث أن يتبين أقوال الزنادقة الحقيقية وأن يعرف كيف كانوا يوردونها .

ومن أجل هذه الصعوبات مجتمعة كان الباحثون من المستشرقين يقتصرون على دراسة ناحية صغيرة من نواحى الزندقة ، أو واحد من كبار الزنادقة الذين يستطيعون أن يجدوا منهم فى المصادر شيئاً . ولم يستطع واحد منهم حتى هذه الأيام الأخيرة أن يكتب بحثاً شاملاً لهذه الحركة يتناولها من جميع نواحيها

فمن صالح بن عبد القدوس أتى جولد تسيهر بحثاً قيماً فى المؤتمر الدولى التاسع للمستشرقين سنة ١٨٩٣[1] . ثم من بعده كتب ا . كريمسكى رسالة صغيرة (فى ٦٥ صفحة) بالروسية عن أبان ابن عبد الحميد اللاحقى طبعت فى موسكو سنة ١٩١٣ . وكان ابن المقفع خصوصاً موضوعاً لدراسات عدة أشهرها ما كتبه عباس إقبال فى كتابه « شرح حال عبد الله بن المقفع ، فارسى » وهو مكتوب بالفارسية؛ ثم فرنشكو جبريلى فى مقاله المنشور « بمجلة الدراسات الشرقية » سنة ١٩٣٢ بعنوان « مؤلفات ابن المقفع » وهو أحسن بحث كتب عن ابن المقفع حتى الآن. وقد أثار بحثين آخرين كتب أولهما كارلو ألفونسو نلينو فى المجلة نفسها بعنوان « تعليقات على ابن المقفع وابنه » وكتب الثانى الأستاذ بول كراوس فى المجلة عينها سنة ١٩٣٣ تحت عنوان « حول ابن المقفع » وقد ترجمنا هذه البحوث الثلاثة وربما أتيحت لنا فرصة قريبة لنشرها أو للتحدث عنها . وبعد أن كتب جبريلى مقاله ظهر بحث عن ابن المقفع كتبه وشنر[1] وكانت أفكاره فيه أجرأ وأصرح من أفكار جبريلى فى مقاله

ونحن قد أشرنا من قبل إلى المقال الذى كتبه الأستاذ كراوس عن ابن الراوندى[2] بمناسبة الفقرات التى عثر عليها فى « المجالس المؤيدية » مأخوذة من كتاب « الزمرذ » لابن الراوندى . وهو مقال طويل (فى ثمانين صفحة) مملوء بالمعلومات ؛ وهو حتى الآن أحسن بحث كتب عن ابن الراوندى ، وقد ترجمناه أيضاً .

وأخيراً كتب الأستاذ فرنشكو جبريلى : « تعليقات على بشار بن برد » ظهرت فى مضبطة مدرسة الدراسات الشرقية[3] سنة ١٩٣٧ .

وكل هؤلاء الباحثين لم يحاول واحد منهم حتى الآن أن يكتب عن حركة الزندقة كلها كما ظهرت فى الإسلام . ولكن بين يدى الآن فصل ممتع كتبه الأستاذ جورج فيدا سنة ١٩٣٥ ولم ينشر إلا فى سنة ١٩٣٧ فى « مجلة الدراسات الشرقية[4] » أراد فيه أن يدرس تاريخ الزندقة الظاهرى — إن صح هذا التعبير — دون التعرض للمناظرات التى قامت ضد الثنوية والمانوية ولما عسى أن يكون هناك من أثر للمانوية فى الحياة الفكرية فى ذلك العصر (أوائل العصر العباسى) ، معتمداً فى ذلك على المصادر التاريخية الخاصة باضطهاد الزنادقة ، وبأشهر الزنادقة فى خلافة العباسيين الأول . وأول هذه المصادر وأهمها كتاب « الفهرست » ويليه كتاب « الأغانى » . ثم كتب التاريخ الكبرى مثل : « تاريخ الطبرى » و « مروج الذهب » .

بدأ الأستاذ فيدا بحثه بأن أورد فى القسم الأول منه الفقرات الموجودة فى كتاب « الفهرست » لابن النديم ، وبعضها خاص بتاريخ المانوية فى بلاد الإسلام واختلافهم حول الإمام بعد مانى ، واضطهاد كسرى لهم وتشتتهم فى البلاد وأسماء رؤسائهم . والبعض الآخر من هذه الفقرات يتعلق بالمتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة ، وبأسماء الرؤساء والأمراء الذين اتهموا بالزندقة فى أيام العباسيين .

(١) I. Goldziher, Sâlih b. 'Abd al-Koddûs wd das Lin- dihims während der Regiermog des Chalifen al-Mahdi, (Transactives of the 9th. International Congress of Orientalistes), London 1893, vol. II, ph.104-129

(١) M. G. Richter, Stuctien zur Geschichte der älteren arabischen Fürstenopiegeh Leipsig, 1932

(٢) Paul Kraus, Beiträge zur islamischen Ketzerge schichte, RSO, XVI 1934, 99-129

(٣) BSOS, 1937, p. 151-163

(٤) G. Vajda, Les zindiqus en pays d'Islam ao début de la période abbaside, RSO, XVI 1937, ph. 173-229

وفى القسم الثانى تحدث صاحب المقال عن اضطهاد الزنادقة اضطهاداً رسمياً فى أيام الخلفاء العباسيين الأول . فقال : إن المصادر لا تسمح لنا بتتبع هذا الاضطهاد إلا فى الفترة القليلة التى مضت بين سنة ١٦٣ هـ إلى سنة ١٧٠ هـ أى فى السنوات الأخيرة من خلافة المهدى وإبان خلافة الهادى القصيرة الأجل .

فى سنة ١٦٣ بدأت حملة المهدى العنيفة على الزنادقة بأن أمر عبد الجبار المحتسب ، والذى يلقبه صاحب الأغانى بلقب « صاحب الزنادقة » بالقبض على كل الزنادقة الموجودين فى داخل البلاد . فقبض على من استطاعوا القبض عليه، وأتوا به إلى الخليفة الذى كان حينئذ فى دابق ؛ فأمر بقتل بعضهم ، وتمزيق كتبهم . واستمر الخليفة فى هذا الاضطهاد فى السنوات التالية ، حتى بلغ الاضطهاد غايته فى الفترة ما بين سنة ١٦٦ هـ و سنة ١٧٠ هـ . وكان يقوم على أمر هذا الاضطهاد قضاة مخصوصون ، أشهرهم : عبد الجبار الذى ذكرناه آنفاً ، وعمر الكلوزى الذى عين فى سنة ١٦٧ ، ثم محمد بن عيسى حمدويه الذى خلف عمر .

وكان الزنادقة يقبض عليهم لأقل شبهة ويأتون أمام القاضى فيطلب إليهم أن يرجعوا عن الزندقة إن اعترفوا بها ويطلق سراحهم إن رجعوا عنها ويقتلون إذا استمروا عليها ورفضوا الخروج عنها. ولكى يتأكدوا من أنهم رجعوا عن الزندقة حقاً كان الخلفاء يستخدمون وسائل شتى أشهرها تلك التى يروون عن القضاة فى عصر المأمون أنهم كانوا يستخدمونها ، فهم يذكرون عنهم أنهم كانوا يطلبون إلى الزنديق أن يبصق على صورة مانى ، وأن يذبح طائراً مجرياً اسمه الزرزج . أما البصق على صورة مانى فالمقصود به تحقير صاحب مذهب المانوية وهو مانى، وهذا دليل على أن الزنديق قد رجع عن هذا المذهب ؛ أما الحكمة فى ذبح هذا الطائر فلا تكشف عنها المصادر التى بأيدينا . ولكن مؤلف المقال الذى نحن بصدده يقول بأن المقصود بذلك هو أن يفرض على الزنديق أن يذبح كائنا حياً ، وذبح الحيوانات تحرمه المانوية . ولا بد لنا من قبول هذا التفسير لأن كل المصادر التى تحدثنا عن المانوية لا تذكر مطلقاً أن المانوية كانوا يقدسون طائراً بعينه ، سواء أكان هذا الطائر الزرزج أو كان غيره . وقد حدث مثل هذا فى أيام محاكم التفتيش سنة ١٢٣٩ مع طائفة الكاثار Cathares التوسكانيين فقد طلب إليهم بحضور البابا جورج الرابع أن يبرهنوا على إخلاصهم فى الارتداد بأن يأكلوا اللحم أمام جمع من الأساقفة (١)

ولم يكن كل هؤلاء الذين يتهمون بالزندقة زنادقة حقاً ؛ وإنما كان منهم من يتهم بالزندقة لأسباب سياسية . فقد اتخذ الخلفاء من هذا الاتهام وسيلة للقضاء على خصومهم من الهاشميين . وعلى هذا النحو اتهم ابن من أبناء داود بن على ثم يعقوب بن الفضل وأتى بهما إلى الخليفة المهدى . ولما كان الخليفة المهدى قد ارتبط من قبل بعهد ألا يقتلهما ، فانه لم يستطع أن يأمر هو بقتلهما ، وإنما حبسهما وأشار إلى ابنه الهادى أن يقتلهما حينما يتولى الخلافة ، ولكن الهادى لم يستطع أن يقتل غير يعقوب ، لأن ابن داود بن على مات فى سجنه قبل أن يشغل الهادى مركز الخلافة .

ولسنا نعرف على وجه التحقيق ماذا كان يرجه إلى الهاشميين من تهم . وكل ما ترويه لنا المصادر هو ما يرويه لنا الطبرى (أخبار سنة ١٦٩ جـ ٣ ص ٥٤٩) وما لخصه عنه ابن العبرى فى كتابه « تاريخ مختصر الدول » (ص ٢٢١) من أن ابنة يعقوب بن الفضل قد اعترفت أثناء محاكمتها بأنها حبلى من أبيها ! والمانوية تحلل زواج الآباء بالبنات فى الروايات الإسلامية .

ولم يقتصر الأمر على الخلفاء فى اتهامهم الخصوم بالزندقة لأغراض سياسية ، بل كان هناك من الوزراء من يتخذون الاتهام — الباطل غالباً — بالزندقة سبيلاً للكيد والوقيعة بنظرائهم أو خصومهم الذين يحقدون عليهم . ومن هنا نستطيع أن نفهم تلك الرواية التى ذكرها الطبرى (ج ٣ ص ٤٩٠) ثم الجهشيارى فى « كتاب الوزراء والكتاب » (ص ٨٩ — ص ٩٠) ، ثم صاحب الأغانى وغيرهم ، من اتهام أبناء أبى عبيد الله الوزير بالزندقة . فقد اتهم الربيع صاحب الخليفة المهدى ومنافس أبى عبيد الله الوزير أبناء هذا الأخير ، أو واحداً من أبنائه — كما فى بعض الروايات — بأنهم زنادقة . وقد أفلح الربيع فى هذا الدس عند الخليفة الذى أمر بأن يقتل عبد الله بن أبي عبيد الله الوزير . وكان ذلك سبباً فى توتر العلاقات بين المهدى وبين أبى عبيد الله ، حتى أن الخليفة

(١) H. Ch. Lea, Histoire de l'inquisition au moyen âge, trad. S. Reinach, Paris 1900, I, 110;
J. Guiraud, Hist. de l'inquisition au moyen âge, Paris 1935, ph. 38-39.

عزله من منصب الوزارة[1] ، وولى يعقوب بن داود بدلاً منه[2]

والطبرى[3] يذكر صراحة أن اتهام ابن ابى عبيد الله بالزندقة كان يقصد به زعزعة مركز أبيه عند الخليفة المهدى . وقد كان أبو عبيد الله موضوعاً للمسائس موالى المهدى . ويذهب صاحب الأغانى إلى أبعد من هذا فيقول إن المهدى أدرك من بعد السبب الحقيقى الذى من أجله أبلغه الربيع أخباراً عن زندقة ابن الوزير (الأغانى ج ٢١ ص ١٢٢)

والآن ، وبعد هذا العرض الموجز للاضطهادات التى عاناها الزنادقة ، أو من اتهموا بالزندقه ، فى الفترة ما بين سنة ١٦٣ وسنة ١٧٠ ، نسائل أنفسنا : ما هى هذه الزندقة التى اتهم بها هؤلاء ، وبأى معنى يجب أن نفهم ؟

يرى صاحب المقال أن الزندقة التى حاربها المهدى والهادى فى شخص هؤلاء الزنادقة هى المانوية ، أولاً وبالذات . ودليله على ذلك ما ذكرناه من قبل من الوسائل التى كان يتحن بها القضاء قيمة رجوع الزنادقة عن الزندقة ، وإنكارهم لها ، حينما يقدمون إليهم . ويؤيد هذا الرأى أيضاً تلك الرواية التى ذكرها الطبرى[4] والتى يمكن اعتبارها صادقة وهى التى تقول بأن أحد الزنادقة قدم إلى الخليفة المهدى فطلب إليه الخليفة أن يتبرأ من الزندقة ولكنه رفض فأمر بقتله ، والتفت من بعد إلى ابنه موسى ، وقال له كلاماً يحثه فيه على محاربة هذه العصبة من الزنادقة . ووصف له مبادئ هذه العصبة وصفاً يكاد ينطبق كله على مذهب المانوية ؛ مما يدل على أن المقصود بالزندقة كان حينئذ مذهب المانوية

ومع هذا كله فإن هذا اللفظ قد اتسع معناه فى هذه الفترة ذاتها اتساعاً كبيراً كما سنرى فى مقالنا التالى عن أشهر الزنادقة فى أيام الخلفاء العباسيين الأول .

عبد الرحمن بدوى

(١) مروج الذهب ج ٦ ص ٢٣٢
(٢) ابن خلكان فى ترجمة ج ٣ ص ٨٤٠
(٣) الطبرى ج ٣ ٤٨٧ وما بعدها
(٤) الكتاب السابق ج ٣ ص ٥٨٨

مكتب مطارات مصر

بفضل طائرات

شركة مصر للطيران

تسافر سفرًا سريعًا مريحًا نظيفًا مع الاقتصاد

من القاهرة الى ..

الاسكندرية	فى ساعة واحدة
بورسعيد	فى خمس دقيقة
المنيا	فى خمس وسبعين دقيقة
أسيوط	فى ساعتين
فلسطين	فى ساعتين ونصف
قبرص	فى أربع ساعات
بغداد	فى سبع ساعات

لا يكلفك السفر بطيارات شركة مصر للطيران إلا ثمن التذكرة فقط . وهو أقل فى بعض الأحيان من أجور السفر بالوسائل الأخرى . ينقل المسافر من قلب المدينة إلى المطارات وبالعكس بسيارات الشركة المجهزة مجاناً ، وله الحق فى أخذ متاعه معه بالطائرة لغاية ١٥ كيلو جراماً بدون أجر . وما زاد على ذلك يؤخذ عليه أجر معتدل أسوة بأجور السفر .

وبالطائرات جهاز فى متناول يد المسافر لتلطيف الهواء حسبما شاء : فلا برد ولا حر ولا غبار — بينما هو جالس فى الطائرة على مقعد وثير مريح يمتع الطرف بالمناظر الجميلة الممتدة فى جو معتدل

فلماذا إذن لا تجنى هذه الميزات وتساير العصر ؟

سافر بطائرات شركة مصر للطيران

بين القطر المصرى وفلسطين وسوريا والعراق وقبرص . طائرات خاصة للايجار لأى جهة وللنزهات . مدرسة لتعليم الطيران

احجز التذاكر والاستعلامات من شركة مصر للملاحة — القاهرة الاسكندرية بورسعيد أو من شركة مصر للطيران بأنحائه ، تليفون رقم ٥ — ٦١٢٨٤ ليلا ونهاراً أو من أى مكتب سياحة